

ثورة ابن الشريف الدرقاوي في الغرب الجزائري إبان القرن التاسع عشر

د. غالي الغربي

استُهل القرن التاسع عشر باندلاع أكبر وأخطر ثورة شعبية على العثمانيين منذ مجيئهم إلى نيابة الجزائر في القرن السادس عشر وهي تلك التي تزعمتها الطريقة الدرقاوية⁽¹⁾، وقد تزامن لهيب هذه الثورة مع تفاقم الوضع السياسي والإقتصادي والإجتماعي لحكومة الدايات. لهذا كان تهديدها خطيرا وكبيرا مما جعل رد فعل العثمانيين عنيفا وقاسيا. خاصة وأن الثوار لم يتوانوا في مهاجمة الحاميات العثمانية في المدن والأرياف وعلى مختلف الجبهات بجرأة وحماس فائقين⁽²⁾. وفي مقالنا المختصر هذا سوف نكتفي بسرد أحداث ثورة هذه الطريقة في الناحية الغربية من النياية أي بايليك الغرب، وما رافقها من ملابسات وتدخلات خارجية. وقبل الغوص في الموضوع علينا بالتطرق أولا لخلفيات هذه الثورة وأسبابها.

1 - فساد النظام السياسي وعزلته :

مع إزدياد التحديات الداخلية والخارجية التي بدأت تعترض العثمانيين في الجزائر خاصة والبلاد العربية عامة مع نهاية القرن الثامن عشر، بدت بوادر التوتر بينهم وبين الرعية، هذه الأخيرة التي كانت بمثابة الدعامة التي يستند عليها النظام العثماني ليستمد من موقفها التأييدي له، الشرعية التي تمكنه من حكم نيابة الجزائر وتسيير شؤونها، وكانت هذه التحديات وراء انطباع نظرهم للأهالي، بالحيلة والحذر والخوف من انفلات السلطة من بين أيديهم. فأصبحت كل المناصب العالية

Sources exploitées

- Archives d'Outre-mer à Aix-en-Provence, F80/1733: Le Bandjek, recueil, trad. par A. Devaulx (3Cahiers).
- Baude (Le Baron) : L'Algérie, Tome II, Paris 1841.
- Belhamissi (M) : Alger, la ville aux mille canons, Alger 1990.
- Belhamissi (M) : Histoire de la marine algérienne 1516 - 1830, Alger 1983.
- Berbrugger (A) : Captif et patronne à Alger en 1640 in Revue Africaine, T 8/1864, PP 302 - 315.
- Berbrugger (A) : Voies et moyens du rachat des captifs chrétiens dans l'Etat barbaresque, in Revue Africaine, T II/1867, PP 325 - 332.
- Blavin (J) : La condition et la vie des français dans la Régence d'Alger, Alger, 1899.
- Bourbon (Prince sixte de) : La dernière conquête du Roi : Alger 1830, Paris 1930.
- Boutin : Reconnaissance des villes, forts et batteries d'Alger, pub. par G. Esquer, Alger 1927.
- Boyer (p) Les Renégats et la machine de la Règence d'Alger in Revue d'Occident musulman et de la méditerranée n 39/1985, pp 93-106.
- Braudel (F) : La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II, 8ème édition, 2 Vols, Paris 1988.
- Cazenave (J) : Les présides espagnols d'Afrique, in Revue Africaine, T 63/1922, PP 225 - 269.
- Dan (P.F) : Histoire de Barbarie et de ses corsaires, Paris 1637.
- Dapper (D'O.D.M) : Description d'Afrique, Amsterdam, 1686.

Créé avec

 **nitroPDF** professional

télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

والرتب القيمة مقصورة على العنصر التركي لاغير. أما بقية الشرائع والطوائف الاجتماعية فكانت ذليلة ومهمشة، وحتى القوانين والتشريعات التي سنوها، لم تكن عادلة بل مجحفة وقاسية⁽³⁾.

ورغم أن العثمانيين، كان بإمكانهم استغلال الخطوة التي كانوا يتمتعون بها لدى الأوساط الشعبية في بداية مجيئهم لكسبها إلى جانبهم، إلا أن شيئا من هذا القبيل لم يحصل بل أقاموا بينهم وبين هذه الأوساط حاجزا من الوسطاء واعتبروا أنفسهم دائما الأسياد وحكموا البلاد باستبداد مشابه لإستبداد أمراء الجمهوريات الإيطالية⁽⁴⁾.

ومن جهة أخرى، حاول العثمانيون توظيف فكرة التضامن الإسلامي لترسيخ نفوذهم لدى مختلف الأوساط الشعبية، بالتقرب إلى المرابطين و"شيوخ الزوايا"، ومصاهرتهم ومنحهم مختلف الأعطيات والإمتيازات، إلا أنهم أخفقوا في خلق إطار شعبي طبيعي للإتصال بالرعية بهذه الوسائل. وسرعان ماشكلوا أرستقراطية جديدة ذات نظرة مغلقة مبنية على أصول عنصرية ومصلحية، احتكرت وحدها السلطتين السياسية والإقتصادية⁽⁵⁾. وقد نفسر هذه السطحية، بعجز الدولة بأنظمتها وأدواتها على بسط حكمها، لأن الأدوات في واقع الأمر كانت أدوات حرب أكثر منها أدوات حكم⁽⁶⁾. والمتعارف عليه لدى الدارسين لتاريخ الإمبراطورية العثمانية، أن النشأة الأولى لهذه الأخيرة كانت عسكرية ولازمتها هذه الصفة حتى زوالها.

ولنا في الشعر الشعبي الجزائري شواهد كثيرة تدل على المعاناة من جراء الفساد والضغط اللذين كانا مسيطرين على السكان من جراء فساد نظام العثمانيين، كقول أحدهم :

عاتوا عتورا على الخلق وجاروا فكانوا أكثر العباد وقاروا
فرفع الكل الأكف ودعوا بما أجاب الله ورجوا⁽⁷⁾.

أما "الزباني"، ورغم كونه من المؤرخين المقربين للسلطة العثمانية إلا أنه يقول عنهم : (...). وأعلم أن الأمم كلها تعبد لهم الملك الجزائري، كثر ظلمهم وفسادهم

بحيث لايليق أن يذكر ماكانوا منه من الظلم والمناكر وتواتر ذلك على السنة بغاية التواتر، فاشتغلت العلماء من ذلك في نظمهم وسألت الناس أن يزيل عنها ما حل من ظلمهم...⁽⁸⁾.

ومن خلال هذه النظرة الموجزة، نلاحظ أن النظام العثماني التركي في الجزائر كان منذ بدايته يسير بسرعة إلى الإنهيار السياسي والاجتماعي والاقتصادي، لأنه اعتمد في أساسه على القوة العسكرية وعلى حكام لايربطهم أية روابط طبيعية بالبلد والسكان، وهذا مادفعهم لأن يتجاوزوا حدود سلطتهم القانونية، ويرتكبوا الفضائح ويمارسوا الظلم والقهر تجاه الرعايا والأعيان⁽⁹⁾.

وقد وصل فساد النظام التركي إلى أقصاه في عهد حكومة الدايات (1671 - 1830)، وهي الفترة السياسية التي اشتدت فيها حدة الثورات الشعبية على الوجود التركي في نيابة الجزائر. وتجسدت أول ظاهرة من ظواهر فساد هذا النظام بانحطاط المستوى الاجتماعي للدايات، ونستدل على ذلك من قول أحدهم وهو يخاطب أحد الدبلوماسيين الفرنسيين... أنا رئيس عصابة من السراق ومهنتي هي أن آخذ وليس أن أعطي...⁽¹⁰⁾. فهدف الدايات كان الإستبداد بالسلطة وجمع الأموال، وليس الرقي والإزدهار الحضاري باعتبار أن غالبيتهم من بيئات منحلة من الأناضول وسواحل أوربا المطلّة على البحر المتوسط توصلوا لرتبة داي، بعد أن مارسوا عدة أعمال ووظائف بسيطة في مدينة الجزائر فمنهم من كان إسكافيا أو حمالا أو حارسا أو كناسا⁽¹¹⁾ ووصلوا إلى السلطة في ظروف غير طبيعية منها على سبيل المثال دعم اليهود لهم. أما الظاهرة الثانية من ظواهر الفساد فهي الإسراف والتبذير والرشوة، وهذه الصفة الذميمة، جعلت الكثير من الدايات لايتورعون عن بيع ديممهم لليهود والأجانب من الأوروبيين مقابل بعض الكماليات البسيطة⁽¹²⁾. وبذلك يكون الدايات قد تركوا مقاليد أمور الدولة وشؤونها إلى مجموعة من الضباط والموظفين واليهود والأجانب ينهبون خيرات البلاد وثرواتها⁽¹³⁾. فتحوّل مهمة حكومتهم إلى ملء الخزانة العامة بالأموال فقط لتنتقل بعد ذلك إلى «حاشيتهم لتدعيم سطوة النظام والمحافظة عليه، حتى أن

النيابة على تعبير "ابن شنهو" غدت ... قطعة من الحلوى كل موظف يأخذ منها حسبما يخوله له شعبة ... (14).

وهكذا لم يبذل الدايات، جهدا لتطوير علاقتهم مع السكان المحليين نحو الأحسن والأمثل، فلم تكن تربطهم بالبلد أية روابط من شأنها أن تجعلهم حريصين على سمعة النيابة، سوى الجانب المالي، وكان هذا أحد أسباب الثورة المباشرة.

2 - السياسة الضريبية :

أخذت حكومة الأتراك، في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، تفقد بالتدريج صفتها البحرية التي اتسمت بها منذ تاريخ تأسيسها، ليزداد ارتباطها واهتمامها بالأرض، أي الموارد الطبيعية الداخلية. لكن هذا الإهتمام بالشؤون الداخلية للنيابة كانت نتائجه وخيمة على السكان وعلى مستقبل الأتراك في الجزائر، لأن هذا التحول السريع من سياسة إلى سياسة لم يعتمد على خطة مدروسة مسبقا، فتمتص الردود الشعبية عليها، وباعتباره يمس أوسع طبقة إجتماعية، هي طبقة الفلاحين، التي كانت تشكل الأغلبية والعمود الفقري الذي يعتمد عليه اقتصاد النيابة. هذا بالإضافة، إلى أن دور الأتراك في تطوير البنية الاقتصادية لنيابة الجزائر كان سلبيا، إذ لو أسهموا إسهاما محسوسا وجديا في إنفاق رؤوس الأموال التي جمعوها من القرصنة في تحسين أحوال البلاد ورفع مستواها الاقتصادي، لكان كفيلا بتخفيف الآثار السلبية التي تركها هذا التحول، لهذا بقيت الجزائر تحتل مرتبة ثانوية إذا ما قورنت بتونس أو طرابلس أو بعض البلدان العربية (15)، في تلك الحقبة التاريخية.

ورغم تنوع الثروات والموارد الطبيعية، فإن الحياة الاقتصادية كانت في بداية القرن التاسع عشر متدهورة وتعاني من عدة مشاكل وصعوبات عاقت تطورها وازدهارها. كان على رأس هذه العوامل طبيعة النظام التركي ذي الأصول الإقطاعية، فضلا على الأساليب العتيقة المستخدمة في الميدان الزراعي والصناعي والتجاري، واحتكار الحكومة لهذه الأنشطة (16)، والخيولة دون نشوء بورجوازية

Créé avec

وطنية تقوم بتنشيط الحياة الاقتصادية، والإستعاضة عنها بالتجار الأجانب، بخاصة من اليهود والفرنسيين، الذين أصبحوا يتصرفون في النيابة وكأنها مستعمرة تابعة لهم (17).

أمام هذه الأوضاع الاقتصادية المتدهورة راح الدايات يطالبون "البايات" بموارد إقتصادية بديلة لتغطية النقص المفاجئ الذي سببه ضعف القرصنة. فما كان من هؤلاء إلا مضاعفة استغلالهم لأقاليمهم بدقة ومضاعفة الحملات العسكرية على القبائل لإرغامها على دفع الضرائب لحكومة الدايات (18) ويجمع المؤرخون، أن التوسع الذي شهدته النيابة في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، في تنويع الضرائب دون استغلال مصادر إقتصادية أخرى، أدى إلى جعل الحكومة التركية أداة استهلاك تعيش على ما يدره عليها الجهاز الضريبي دون السعي إلى تنمية مرافق الدولة الإقتصادية، فكل ما كانت تنتجه النيابة من موارد يذهب بشكل مرتبات وجرايات للمؤسسة العسكرية وموظفيها (19). وكانت عملية جباية هذه الضرائب تتم تحت الضغط والإرهاب في أغلب الأحيان مما دفع الحكام الأتراك إلى تجهيز الحملات العسكرية (20) لتأديب الشوار وإرغامهم على الدفع لدى أية بادرة مقاومة أو تهرب من دفع المبالغ المالية المستحقة عليهم، مما زاد في الهوة بين الطرفين.

وكانت نتيجة هذه السياسة المالية إحساس الفئات الإجتماعية المحرومة وعلى رأسها الفلاحون، بأن كل مجهوداتها أصبحت موجهة إلى خدمة الغير، وتوفير الرفاهية للطبقة التركية دون التمتع بأية حقوق. تقابل ذلك. فرفضت هذه الإجراءات الجديدة واعتبرتها تعسفا وجورا عليها يستوجب محاربتها. لذلك يمكن اعتبار هذه الثورة، كبقية الثورات عبارة عن رد فعل طبيعي من جانب السكان على التصرفات الجائرة الناتجة عن الإجراءات المالية التي مارسها "الدايات" و"البايات". وقد عبرت شهادات المؤرخين المعاصرين والأشعار الشعبية على مدى ما كان يقاسيه ويعانيه الفرد الجزائري من جراء ثقل الضرائب وحرق المحاصيل الزراعية ونهب الأملاك ومصادرة قطعان الماشية (21).

لما كان المغرب الأقصى قد لعب دورا أساسيا في ثورة الطريقة الدرقاوية، بتشجيع الشائر "ابن الشريف" وكل المناهضين من الجزائريين، وإعانتهم بالمال والسلاح. لهذا سنحاول أن نلخص هذا الدور بإيجاز. كان سلاطين المغرب الأقصى حجر عثرة أمام التوسع التركي في الناحية الغربية من النيابة. وظل هذا دأبهم حتى زوال حكم الأتراك في الجزائر. وعلى الرغم من ذلك حاول الأتراك عدة مرات خرق هذا السد المنيع، إلا أنهم أخفقوا. وإذا عدنا إلى الوراء، فإن المغاربة أظهروا رفضهم لدخول منطقة الشمال الإفريقي تحت مظلة الإمبراطورية العثمانية وإدعاء هذه الأخيرة السيادة على العالم العربي والإسلامي⁽²²⁾. وقد أبدى المغرب في عهد حض سلاطينه العظام، طموحا في ضم الجزائر وتونس، وتحقيق إمبراطورية الموحدين وهذا ما يشير إليه المؤرخ المغربي التمكنوتي في كتابه "النفحة المسكية بقوله" ...والعثمانيون إنما عملوا الإمارة وقادوا الأمر في الحقيقة نيابة وأمانة يؤدونها إلى من هو أحق بها، وهم موالينا وساداتنا الشرفاء ملوك بلاد المغرب"⁽²⁴⁾.

ولتحقيق هذا الطموح السياسي، اعتمدت سياسة المغرب داخل الأراضي الجزائرية على الطرق الصوفية. وكانت مراكزها تشكل خيطا يمتد من "قاس" إلى "تلمسان" و "تونس"، مروراً بالواحات. وكانت زوايا هذه الطرق على اتصال فيما بينها، تنقل الأخبار إلى داخل النيابة، وآراء الشيوخ من "قاس" و "الرباط". وقد استغل المغاربة الهجمات الأوربية على النيابة، والصراعات السياسية داخل النظام التركي، لبسط سيادتهم على أجزاء من الأراضي الجزائرية، لكن عدم قدرتهم على المواجهة العسكرية مع الجيش التركي جعلتهم لا يتمسكون طويلا بهذه المناطق.

وإذا عدنا إلى أحداث ثورة "ابن الشريف" نلاحظ أنه بعد العجز التركي على قمعها رغم اللجوء إلى جميع الوسائل - راح "الدايات" يخاطبون ملك المغرب "مولاي سليمان" ورجوه إرسال شيخ الطريقة لتهدئة الأوضاع، ومنه نستنتج ذلك الدور الرئيسي الذي اضطلع به هذا السلطان في إثارة هذه الثورة ضد دايات الجزائر. ويظهر من بعض الرسائل أن السلطان كان على استعداد كامل للتدخل عسكريا في

المنطقة الغربية من النيابة، وذلك لتحقيق الأهداف التقليدية لسلاطين المغرب وأطماعهم القديمة. وحسب الرسائل⁽²⁹⁾ نفسها، يبدو أن الذي عاق السلطان عن تحقيق هذا الهدف كانت الظروف الطبيعية والمناخية، لكنه أبدى رضاه عن الخطوات التي قام بها "الشيخ مولاي العربي الدرقاوي"، وعلى رأسها البيعة التي كتبها سكان مدينة تلمسان للسلطان المغربي⁽²⁶⁾. ورغم تورط السلطان "مولاي" إلا أن المؤرخين المغاربة ينفون تورط "مولاي سليمان" في أحداث الثورة ومجرياتها، ويجمعون على رأي واحد وهو أن السلطان لما قدم عليه الوفد الجزائري ليقدم له البيعة، إقتصر دوره فقط على تحقيق المصالحة بين الرعية والأتراك. وبذلك يكون قد سلك مسلكا هو أرفق بالجميع، الأتراك والأهالي. لكن مجريات الأمور وتطوراتها تؤيد ما ذهبنا إليه، وهو تورط هذا الأخير في هذه الثورة، وذلك ردا على تدخل الأتراك في أحداث ثورتي "محمد بن عبد السلام" و "زيان" في منطقة الريف المغربي⁽²⁷⁾. إلا أن هذا الموقف التأبيدي من جانب السلطان للثورة لم يستمر طويلا، إذ أدرك السلطان أن ميزان القوى بدأ يتحول لصالح الأتراك بعد أن استطاعوا كسر الطوق الذي فرضه "ابن الشريف" على مدينة وهران. لم يجد السلطان مخرجا، إلا إنكار معرفته برسوله الذي أرسله إلى الشوار بل وسارع في إرسال رسول جديد إلى مدينة تلمسان، لإعادة الأوضاع إلى ما كانت عليه سابقا، وشجب تصرفات شيخه ومقدمه "ابن الشريف"⁽²⁸⁾.

4 - التعريف بابن الشريف :

زعيم هذه الثورة هو "محمد بن عبد القادر بن الشريف الدرقاوي الفليتي"، ويعود أصله إلى قبيلة بربرية هي "كسانة" القاطنة على ضفاف وادي "العبد" في ضواحي سهل "غريس" القريب من مدينة معسكر. تعلم مبادئ اللغة العربية في مسقط رأسه في قرية أولاد باليل، ثم التحق بزاوية "القيطنة" التابعة للطريقة القادرية، حيث لبث فيها مدة من الزمن، وبعدها سافر إلى زاوية "بوبريج" بالمغرب الأقصى وهناك إتصل "بمولاي عبد الله محمد الدرقاوي"، الذي لقنه مبادئ الطريقة الدرقاوية وأجازه، ثم عاد إلى قريته، وفيها أسس زاوية لتلقين الناس أرواد الطريقة

ويظهر أن هذه المهمة قد اسندت إليه من طرف شيخه، الذي عينه مقدما للطريقة في الناحية الغربية من النيابة⁽²⁹⁾.

لقي "ابن الشريف" التأييد الواسع من جميع القبائل الصحراوية التي صارت، كما يقول أحدهم "... كلها شيعته تهدي إليه الهدايا وتعطي العطايا..."⁽³⁰⁾. وأثناء لقاءاته مع مختلف القبائل كانت تشكو إليه ما يصيبها من إرهاق بسبب ما يفرضه عليها الأتراك من مغارم وضرائب، فكان الشيخ "... يمينهم بالفرج القريب..." ويقال، حسب الروايات المعاصرة التي رجعنا إليها، أن "ابن الشريف"، كان قد طرح فكرة إعلان الثورة على الأتراك في أول لقاء له مع شيخه "مولاي العربي الذرقاوي" الذي إستحسنها. ويظهر أن الشيخ كان على علم بالمضايقات التي كان يمارسها رجالات الحكومة التركية على تحركات أفراد الطريقة الدرقاوية، وعلى رأسهم مقدمها "ابن الشريف"، الذي فر إلى الجنوب بعيدا عن متابعات البايات وجواسيسهم. ومن هناك إنتقل إلى مدينة فاس المغربية حيث لقي شيخه في قريته "بني زروال"، فاشتكى له مالحق به ويمريده من جور الأتراك. وقد نقل إلينا المؤرخ المغربي الزباني "الحوار الذي دار بين الطرفين" ... ياسيدي إن بوطننا قوما يقال لهم الترك لا شيء لهم من دعائم الإسلام، ويظلمون الناس ولا يعبؤون بالعلماء والأولياء، نسأل الله أن يكن هلاكهم على يدك لتريح منهم العباد" وتظهر منهم البلاد، فقال له شيخه عليك بجهادهم وقتالهم والله ينصرك عليهم بكاملهم..."⁽³¹⁾.

5 - مراحل الثورة :

إستغرقت عملية الإستعداد وجمع أكبر عدد ممكن من الأنصار مدة خمس سنوات (1800 - 1805)، واستغل "ابن الشريف" فرصة هزيمة إحدى الحملات التركية أمام قبائل "الأنجاد"، ليعلم الثورة. وهذه الحادثة التاريخية التي يجمع المؤرخون على اعتبارها فتيل الثورة كانت أول هزيمة عسكرية تهزم فيها قبائل المخزن، حلفاء الأتراك منذ زمن بعيد⁽³²⁾، كانت أولى مراحل الثورة، الإذن، الذي أعطاه "ابن الشريف" لأتباعه، بنهب أموال ومتلكات هذه القبائل وملاحقتهم أينما

كانوا، وصلت أنباء إنتصاراته إلى وهران عاصمة البايليك، فقام الباي "مصطفى العجمي" (1805 - 1809)، بتجهيز جيش كبير واتجه به إلى "ابن الشريف"، الذي كان قد عسكر بجيشه على ضفاف وادي مينة⁽³³⁾. التقى الطرفان بقرية "قرطاسة"، وكان ذلك في ربيع الأول (1219 - 1805)، حيث دارت أشرس معركة بين الجيش الإنكشاري تعاضده قبائل المخزن، والثوار. ودارت الدائرة على الجيش التركي وفرّ الباي بعد أن تفرق جيشه، حتى قال أحد المؤرخين المعاصرين يصف هذه المعركة ونتيجتها "... فأمسى الباي ومخزنه في نكد وأصبح الدرقاوي وأتباعه في رغد..."⁽³⁴⁾. وتتبع جيش الثوار الفلول المنسحبة من الجيش التركي حتى أسوار مدينة وهران ومعسكر، ولم ينتظر "ابن الشريف" وصول النجيدات من مدينة وهران إلى الجيش التركي الذي تحصن بالمدينة بل قرر دخولها بالقوة، ولم تصمد المدينة كثيرا، فأستسلمت له.

جعل "ابن الشريف" مدينة معسكر مقرا لإقامته هو وأسرته وقاعدة حربية لجيشه. ومنها راح يوجه نداءاته إلى كل القبائل لتعلن الجهاد والحرب على الأتراك وأدواتهم من قبائل المخزن ويهدد كل رافض لدعوته بالويل والثبور كذلك دعا القبائل إلى مبايعته قائلا لهم في إحدى هذه النداءات "... أنا نزعنا عنكم ما كنتم فيه من أداء الجزية، التي هي حرام على المسلم وقطعت دابر الأتراك وأتباعهم، فالواجب مبايعتنا والجهاد معنا..."⁽³⁵⁾. وقد وجدت نداءاته هذه تجاوبا كبيرا من الرعية في الناحية الغربية والوسطى ولم يقتصر إنضمام القبائل على الخاضعين لسيطرة الأتراك، بل تعدى ذلك إلى القبائل المخزنية حليفة الأتراك مثل قبيلة "الحشم"، و"الزمالة" و"الدوائر"⁽³⁶⁾. وبسرعة فائقة عمّ لهيب الثورة ليشمل كل القبائل الجزائرية الواقعة ما بين مدينة "مليانة" و"وجدة" المغربية؛ وأمام هذا المد السريع بدأت الحاميات التركية تتراجع وينسحب أغلبها إلى المدن الساحلية لتحتمي بأسوارها من الغضب الشعبي، وانقطعت كل الإتصالات مع مدينة الجزائر، ولم يبق إلا البحر المنفذ الوحيد الذي يتم عن طريقه توين مينة وهران، التي سار "ابن الشريف" إلى ضرب الحصار عليها⁽³⁷⁾.

يقول صاحب التحفة "...أن باشا الجزائر حاول تجهيز جيش بقيادة مستشاره "علي آغا" لنجدة المدينة المحاصرة، لكن القبائل الثائرة إعتزضت طريقه وألحقت به خسائر فادحة ومنعته من المرور في بلادهم، وكاد جيشه أن يهلك عن آخره بعد أن قطعت عليه القبائل ورود الماء ولولا استنجاهه بأحد المرابطين في مدينة العطاف⁽³⁸⁾. كذلك صارت الأمور في غير صالح الأتراك بعد انسحاب الحامية التركية من مدينة تلمسان ومحاصرة "الكراغلة" لها في قلعة المدينة، مما جعل منها مدينة شبه مستقلة.

6 - أسباب فشل الثورة :

تسببت عدة عوامل في فشل "ابن الشريف" وجيشه في اقتحام مدينة وهران التي حاصرها مدة ثمانية أشهر مع أن الظروف مواتية، وخاصة بعد أن تم القضاء على أغلب الحاميات التركية وتشنت جيش الباي في معركة "قرطاسة". من هذه العوامل قوة أسوار المدينة وعدم قدرة محاصريها على إيجاد منفذ للتسلل إلى داخلها، لقلّة الوسائل وضعف العتاد، ثم عدم تجاوب سكان المدينة مع دعوة "ابن الشريف" القيام ضد الأتراك رغم أن القوة التركية المدافعة عن المدينة كانت قليلة العدد⁽³⁹⁾.

وهذا الإحجام والتردد الذي بدر من جانب السكان يرجع إلى الأعمال التخريبية التي رافقت هذا الحصار التي كان يرتكبها جيش "ابن الشريف" تجاه قبائل المخزن وأملاكهم وهذا ما قضى على التجاوب بين الثوار والطبقة الحضرية المقيمة في المدن وضواحيها. وقد استغل الأتراك، هذا الشرخ بين سكان المدن أحسن استغلال، بتأليب هؤلاء على أولئك. وبهذا الإجراء أخذ الأتراك شيئا فشيئا يسيطرون على الوضع لكنهم لم يتمكنوا من القضاء على المراكز الثائرة إلا في المدن الساحلية⁽⁴⁰⁾. حدث هذا التحول لصالح الأتراك بعد أن عين داي الجزائر، الباي "محمد المقلش" الذي رجح كفة الميزان لصالح الحكومة، إذا رافقت هذا الباي قوة من الإنكشارية قدرت بـ (1100) رجل⁽⁴¹⁾، وبما أن الطريق البري كان مقطوعا فإن هذه القوة من الجنود أخذت البحر لدخول المدينة المحاصرة. وكان أول إجراء قام به

الباي الجديد هو فتح أبواب المدينة وإعادة الحياة الطبيعية إلى مجراها، ثم التصدي للثوار.

ويظهر أن الملل والسأم "قد تمكنا من معنويات الثوار فأثروا الانسحاب إلى الداخل، لتبدأ سلسلة طويلة من المعارك كلفت الجانب التركي الكثير وأدخلت المنطقة في مرحلة من الفوضى السياسية والاقتصادية لم تنته إلا بعد سقوط مدينة وهران بيد الفرنسيين. فبعد أن تحقّق الأتراك بأنه ليس هناك شك في مناصرة سلطان المغرب للثورة، عمد هذا الباي إلى الوسائل الدبلوماسية واستعمل الدهاء السياسي لإتقاء شر الدولة المغربية، وإلى أنواع القمع والإرهاب ضد الثوار⁽⁴²⁾، فعمل على التقرب إلى القبائل ذات الصلة بالثورة التي كانت تتمتع بنفوذ في المنطقة بمصاهرة قبيلة "الحشم" وكانت من ألد أعداء الأتراك. والدافع الذي دفعها إلى الإرتقاء في أحضان الأتراك والإتفاق معهم هو التخوف من القاعدة الشعبية المؤيدة للطريقة الدرقاوية، التي بدأت تلقي تجاوبا شعبيا واسعا، وخاصة إذا عرفنا أن هذه القبيلة تتزعمها الطريقة القادرية بقيادة الشيخ "محي الدين" والد الأمير عبد القادر، والتي لا ترضى بمنافسة طريقة أخرى لها على القبائل. ويشير صاحب التحفة، خلال تطرقه إلى "ابن الشريف" إلى الإختلاف الذي حدث بين "ابن الشريف" والشيخ محي الدين⁽⁴³⁾ لكن المصادر المحلية لا تشير إلى ظهور هذا بين الطريقتين لإكتساب الأنصار والمؤيدين، ولكن يظهر أن شيخ الطريقة القادرية لم ينس الحادثة، وأراد الإنتقام من "ابن الشريف" فأوعز إلى قبيلته بالوقوف إلى جانب الأتراك. والمعروف كذلك أن الطريقة القادرية كانت على علاقة طيبة بالأتراك منذ دخول هؤلاء إلى الجزائر والذين استخدموها كمنافس للطريقة الشاذلية الموالية للمغرب. وبهذا تكون الدسياسة التركية قد لعبت دورها في زرع التفرقة بين الطرفين.

وكانت النتيجة أن الثوار بدأوا يتراجعون عن المواقع التي كانوا قد احتلوها سابقا. وذلك بعد سلسلة كثيرة من المعارك والإضطدامات، ومن أهم هذه المعارك، "معركة أولاد زائر"، التي خسر فيها الثوار، حسب المصادر المحلية "ستمائة رأس، بعثها الباي كلها إلى داي الجزائر"⁽⁴⁴⁾. وفي هذه الأثناء، انتقل "ابن الشريف" إلى

خاتمة

وفي النهاية، لأبد لنا من طرح هذا السؤال، هل كانت ثورة الطريقة الدرقاوية في الناحية الغربية من النيابة، مجرد محاولة سياسية قام بها سلاطين المغرب الأقصى العدو التقليدي لأتراك الجزائر بواسطة أعوانهم، لإختبار مدى قوة النظام العثماني المجاور لهم بعد أن فشلوا في مواجهته عسكريا، فحاولوا أن يفجروه من الداخل بإثارة الفتن والإضطرابات، وبالتالي إرغام العثمانيين على الإعتراف بـ "الحقوق التاريخية المزعومة للمغرب في الجهة الغربية من النيابة" ؟ من جانبنا لانفني أن الثورة استفادت من التأييد المعنوي والروحي من جهة المغرب. لكن المد السريع للثورة - الذي وصلت تأثيراته حتى ضواحي دار السلطان، مقر الحكومة المركزية - لا يمكن أن يفسر فقط بهذا السبب. بل بذلك الحقد والعداء الذي خلقتة تناقضات النظام العثماني في نفوس السكان تجاه الطبقة التركية المتسلطة، التي ذقت شتى أنواع الإضطهاد والقهر والإستغلال، بفرض مختلف الضرائب وتجريد الحملات العسكرية على الريف الجزائري. لهذا وجد السكان في شخص "ابن الشريف" وأمثاله من الذين تزعموا ثورات القرن التاسع عشر، متنفسا لهم، يشكون إليهم مآلحقهم من تعسف واستبداد هذه الطبقة وأدواتها الأخرى التي أغفلت شؤونهم الضرورية واهتمت بالركض وراء السلطة وجمع الأموال، مما سبب في ضياع موارد وأموال السكان، وهذا مادفعهم إلى حقيقة الأمر إلى الثورة ضد العثمانيين. وهذا مايسمح لى بالقول أن رغم الشعارات الدينية والمطالب القبلية التي تسترت بها هذه الثورة، إلا أنها في حقيقة أمرها كانت تعبيراً صادقا عن سخط الرعية وعدم رضاها عن الأوضاع السياسية والإقتصادية والإجتماعية التي كانت سائدة في عهد الحكام العثمانيين.

والشيء الجدير بالملاحظة أيضا في هذه الثورة، هو صفة الشعبية، التي تميزت بها، باعتبار أن زعيمها كان من رجال الطرق الصوفية الذين كانوا قبل هذا التاريخ حلفاء العثمانيين وأنصارهم. فمنذ أن وطأت أقدام العثمانيين الجزائر تنهوا

قبيلة "الأحرار" في الجنوب، إلا أنه لم يجد المساعدة من جانب هذه القبائل، فانتقل إلى مدينة "الأغواط، حيث دخل في مفاوضات مع رجال الطريقة التيجانية للقيام ثانية على الأتراك، لكنه فشل في مسعاه. ومازالت الأسباب التي منعت رجال هذه الطريقة، من تلبية طلب "ابن الشريف" وتوحيد الجهود بينهما لإعلان الثورة غير واضحة، رغم الضغوط التي كانت مسلطة على أفراد الطريقة التيجانية من طرف رجال البايليك، وعلى رأسها المغارم السنوية التي كانوا ملزمين بدفعها. وأمام رفض التيجانيين التعاون مع "ابن الشريف"، انتقل هذا الأخير إلى قبيلة "بني يزناسن" على الحدود المغربية، ومن هناك توارى عن مسرح الأحداث السياسية.

وقد اختلفت المصادر المحلية والأجنبية حول تحديد تاريخ ومكان وفاة "ابن الشريف" وتبتفق صاحب "أنيس الغريب والمسافر" وصاحب كتاب "دليل الخيران..." على أن المقام إستقر به عند قبائل "بني يزناس"، وهناك ترك الفضول لعدم طاقته⁽⁴⁵⁾. أما المؤرخ الفرنسي "دي غرامان" فيؤكد من جانبه أن "ابن الشريف"، قد مات بوباء الطاعون في مدينة "مسيرة"، لكن دي نوفو ذكر أنه ظهر مرة ثانية سنة 1816⁽⁴⁶⁾، وأثار القبائل الصحراوية ومن بينهم قبائل الأحرار واتجه بهم لمقاتلة الأتراك، لكنه هزم وانسحب نهائيا إلى واحة فقيق⁽⁴⁷⁾. وهذا ماذهبت إليه إحدى الوثائق التركية التي تبين أن الثورة استمرت حتى سنة 1816، مع الإشارة إلى الخسائر التي تكبدها الجيش الإنكشاري مع الإلحاح على الأستانة للإسراع بإرسال النجدة العسكرية لمواجهة الثائر الدرقاوي⁽⁴⁸⁾.

roc et leur rivalites avec les Turcs de la regence d'Alger. 1509-1830. Leroux, Paris.1904

23 - الناصري أبو العباس أحمد، الإستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى. الجزء الثامن. الدار البيضاء. 1956، ص 109.

24 - الزباني أبو القاسم، الترجمان المعرب في دول المشرق والمغرب. نشر وتحقيق هوداس. باريس 1886. ص 101.

25 - جاء في إحدى الرسائل التي أرسلها السلطان إلي مولاي العربي الدرقاوي (...). وقررت ارجاء المسألة التي تعرفها وقررت أن لا أبأشر فيها إلا بعد فصل الشتاء لأن الطرق في هذا الموسم تكون صعبة والأودية مرتفعة المستوى وفي الربيع القادم سوف آتي أنا بنفسني بإذن الله مرفقا بعساكري الظافرة لمتابعة مشاريعي بإذن الله وعليك بأخبار سيدي عبد القادر... بالإلتحاق بي حينما يسمع بوصولي إلي وجدة...).

Drague (G): Esquisse d'histoire religieuse de Maroc:

Cahiers de l'Afrique et l'Asie. Peyonnet. Paris. 1958. P. 235.

26 - الناصري، المصدر السابق، ص ص 109 - 110.

27 - Brosselard (CH): Les Khouans; de la constitution des ordres religieuses. Alger. 1859.P 227.

28 - Drague (G): op. cit.P.254.

29 - الناصري، المصدر السابق، ص 100.

30 - الزباني، المصدر السابق، ص 208.

31 - الزباني، نفس المصدر ص 209.

32 - حسين خوجة، درء الأعيان في أخبار مدينة وهران. قام بترجمته ونشره السيد روسو في جريدة لوميتور الجيريان لسنة 1855. رقم (1395 - 1398).

33 - وادي مينة واد ينبع من اقليم النجود وطوله 195 كم، يمر بمدينة غليزان ويصب بشمالها في نهر الشلف وله فرع هو وادي العبد يسير نحو الشمال ويلتقي بوادي مينة عند قرية « فرطاسة ».

34 - مسلم بن عبد القادر، أنيس الغريب والمسافر. تحقيق رابح بونار، ش. و.ن. ت. الجزائر، 1974، ص 73.

35 - حسين خوجة، المصدر السابق، ص 1395.

Turque. Leroua 1889. P.309.

11 - Benachanhou A: L'Etat Algérien en 1830. S.N. E.D Alger (S-D). P.29.

12 - C.C.M. Archives Anterieures:

1880. 1- Commerce de barbarie, A.A Marseille (S.I). Article n Objets presents en puissances du royaume d'Alger (S. O).P.29.

13 - Vatin J.C: L'Algérie en 1830. In (R.A.S.J.E.P). : (11)-(13). A. 1970.P.1993. (Vol(VII).n

14 - Benachanhou. (A): op.cit.P.29.

15 - Lespes (R): Alger l'étude de Geographie et Histoire, Paris Alcan. Alger. P.146

16 - سلفاتور بوتو، العلاقات بين الجزائر وإيطاليا خلال العهد التركي. ترجمة أبو القاسم سعد الله. مجلة الأصالة، العدد 48، سنة 1978، ص 118.

17 - Emerit, (M): La situation économique de regence d'Alger en 1830. In Information historique.1952. T.II. P.169.

18 - Roy, (J.E): Histoire de l'Algérie depuis les temps les plus recules jusqu'a nos jours. A. Maine, Tour.1864. P.142.

19 - للتوسع أنظر، ناصر الدين سعيدوني، النظام المالي للجزائر في الفترة العثمانية. (1800 - 1830) ش.و.ن. ت. الجزائر، 1979.

20 - حول هذه الحملات أنظر،

Federman et Aucapitaine: Notice sur l'histoire de l'administration du beylick de Titteri. In (R.A). 1876. Tome (IX).PP.(291-293).

21 - Emerit (M): Lse Aventures de Ihednant. In (R.A).1948. P.140.

22 - حول هذا الموضوع أنظر،

شحاتة إبراهيم، تطور العلاقات المغربية - قراءة في تاريخ المغرب عبر خمسة قرون (1519 - 1947). الإسكندرية 1981.

Cour Auguste: L'établissement des Dynasties des cherifs de Ma-

- الزباني محمد بن يوسف، المصدر السابق، ص 209.

Caporal (X): Oran capitale du beylick de l'ouest. 1792-1831. Me-moires.PP. 50-51.

Delpeche (A): Resume Historique sur le soulèvement des Der-kaouas de la province d'Oran. In. R.A. 1837. P.44.

37 - محمد بن الأمير عبد القادر، تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر. شرح وتعليق ممدوح حقي، ط 2 دار البقطة العربية، بيروت، 1964، ص 115.

38 - نفسه، ص 115.

39 - إستم حصار مدينة وهران من طرف ابن الشريف حوالي ثمانية أشهر أنظر :

De jardin (V): La commune de dublineau, les Hachems sous le Gouvernement Turcs. In bulletin, S.G.O. 1950.P.50

40 - جوليان شارل أندريه " التدخل المغربي غداة إحتلال العاصمة الجزائرية سنة 1830، مجلة البحث العلمي، الرباط، ديسمبر 1964، ص 261.

41 - Rotalier, (Ch): Histoire d'Alger et la piraterie des Turcs dans le Mediteranée. T.II,Paris. P.591.

42 - عبد الرحمان الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج2، دار العلم للملايين، بيروت، 1969، ص 291.

43 - أشار إلى هذا الخلاف صاحب التحفة إذ قال "وفي بعض الأيام تكلم بحضرته بما يوجب تأديبه شرعا، فأدبه سيدي الحد بالسياط..." ص 215. المصدر السابق.

44 - مسلم بن عبد القادر، المصدر السابق، ص 228.

45 - نفسه، ص 98، والزباني محمد بن يوسف، نفس المصدر، ص 228.

46 - De Gramont (H.D): Histoire d'Alger sous la domination Turque (1515-1830). Leroux, Paris.1887. P.365.

47 - Deneuve, Les Khouanes, Ordres religieux chez les Musul-mans de l'Algérie. 3 (ED), Alger. A. Jourdon. P.133.

48 - Noel (A.H): Documents pour servir a l'histoire des Hamyan et de la région où ils occupent actuellement. In. B.S.G.O. 1925. P.166.

49 - حيث جاء فيها "... خصوصا عندما ظهر هذا المهدي الكاذب منذ 16 سنة في غرب الجزائر، ثار علينا. لقد هاجم العساكر، فقتل قسما منهم وأسر القائد القسم الآخر، وقد ثاروا من جديد واضطر الجيش والأوجاق إلى محاربتهم وعليه فإننا نعلمكم أن عدد الموتى إثر المعارك، ويفضل رعايتكم وبركاتكم فإن الإنكشاريين قد ألحقوا هؤلاء الملاعين هزيمة نكراء. نطلب من حضرة سلطاننا أن يرسل إلى أوجاقنا الذخائر الحربية نظرا لقلّة ما نملكه... الوثيقة الرابعة، حول 1816. عبد الجليل التميمي. بحوث ووثائق في التاريخ المغربي (1816 - 1871). الدار التونسية للنشر. تونس، 1972، ص 240.

50 - Ernest (M) : Histoire de l'Afrique Septentrionale (Berberie depuis les temps les plus recules jusqu'à la conquête Française, 1830, T.I. Leroux. Paris 1891. P.230.

51 - Boyer, (P) : Contribution a l'étude de la politique religieuse des Turcs dans la regence d'Alger. In. R.O.M.M. T. XIV. P.38.